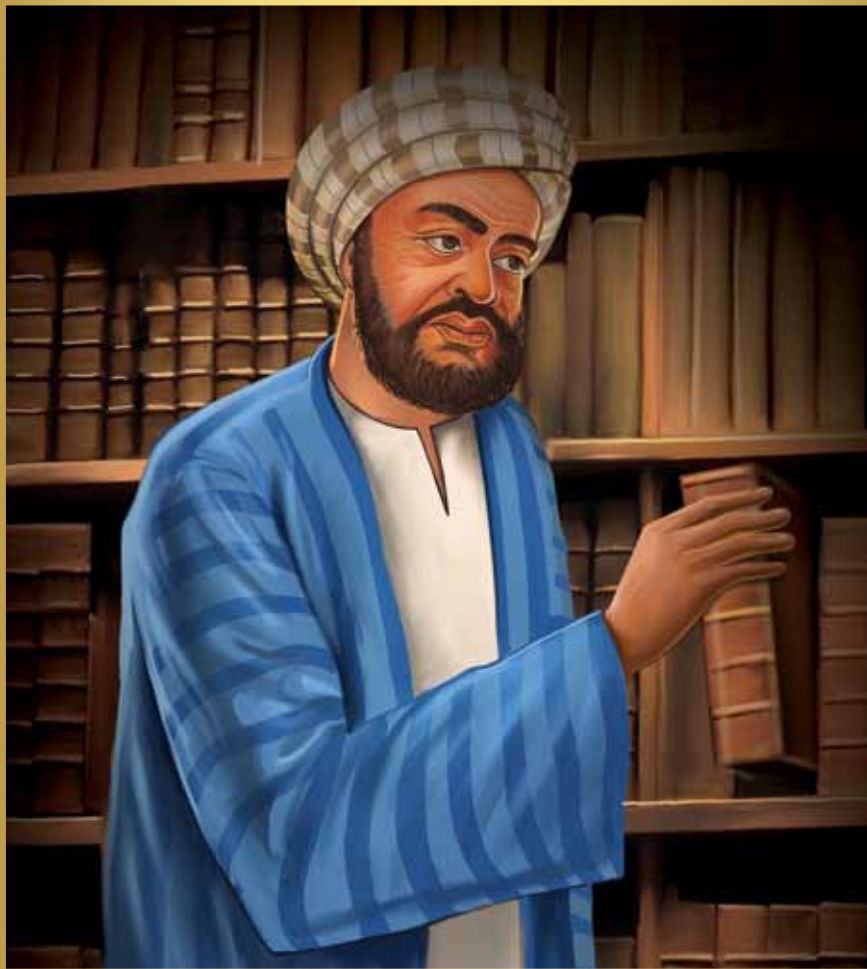


شخصيات تاريخية

الجاحظ

(أبو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ)



نَشَأْتُ فَقِيرًا دَمِيمًا..لأَجْلِ نَتُوءِ وَاضِحٍ فِي حَدَقَتِي، سُمِّيتُ بِالْحَدَقِيِّ!، لَكِنَّ
اللَّقَبَ الَّذِي التَّصَقَّ بِِي أَكْثَرَ هُوَ (الْجَاحِظُ).

فَأَنَا أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ بْنِ مَحْبُوبِ بْنِ قَزَارَةَ اللَّيْثِيُّ الْكِنَانِيُّ الْبَصْرِيُّ (١٥٩ هـ - ٢٥٥ هـ) أَدِيبٌ عَرَبِيٌّ مُسْلِمٌ مِنْ كِبَارِ أُمَّةِ الْأَدَبِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ . طَلَبَتِ الْعِلْمَ فِي سَنِّ مُبَكَّرَةٍ، فَقَرَأَتِ الْقُرْآنَ وَمَبَادِيَّ اللُّغَةِ عَلَى شَيْخِ بَلَدِي، لَكِنَّ الْفَقْرَ وَالْيَتَمَّ حَالًا دُونَ تَفَرُّغِي لَطَلَبِ الْعِلْمِ. فَصَرْتُ أَيْبَحُ السَّمَكِ وَالْخُبْزِ فِي النَّهَارِ، وَأُرْتَادُ دَكَكَيْنِ الْوَرَاقِينَ فِي اللَّيْلِ لِقِرَاءَةِ مَا يَقَعُ بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ كُتُبٍ. فَهَذَا الْمَيْلُ وَالنَّهْمُ لِقِرَاءَةِ الْكُتُبِ لَأَزْمِنِي طَيْلَةَ حَيَاتِي، فَلَا أَكْتَفِي بِقِرَاءَةِ كِتَابٍ أَوْ كِتَابَيْنِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ، بَلْ أحيانًا أُبَيِّنُ فِي الدَّكَاكِينِ لِأَكْمَلِ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ. فَأَنَا أُسْتَوِي قِرَاءَةَ مَا بَدَأْتُ بِهِ مَهْمَا كَانَ السَّبَبُ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّيَ أَشْبَهُ بِالْأَلَةِ تَصْوِيرًا!! فَكُلُّ مَا أَقْرَأَهُ يَرْتَسِمُ بِذَهْنِي وَتَحْفَظُهُ ذَاكِرَتِي طَوِيلًا .

وَاطَّلَعِي لَمْ يَنْحَصِرْ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَقَطْ، بَلْ بِنِقَافَاتٍ أُخْرَى كَالْيُونَانِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ. وَلِي رَأْيٌ مُتَّصِلٌ بِهَذَا الْأَمْرِ (فَالْعِلْمُ الْحَقُّ لَا يُؤْخَذُ إِلَّا عَنْ مُعَلِّمٍ عَالِمٍ، هَذَا مَا يُغْنِي الْفِكْرَ وَيُؤْصِلُهُ، قَدْ لَا تَنْفِقُ أَوْ نَرَضَى عَنْ فِكْرِهِمْ أحيانًا، لَكِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَقْرَ بِفَضْلِهِمْ).

مِنْ أَعْظَمِ مَوْلَفَاتِي كِتَابُ (الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ) يَنْصَبُ عَلَى مَعَالِجَةِ مَوْضُوعَاتٍ أَدَبِيَّةٍ، مِنْ خُطَبٍ وَرِسَائِلٍ وَأُحَادِيثٍ وَأَشْعَارٍ.. حَاوَلْتُ فِيهِ وَضْعَ أُسُسِ عِلْمِ الْبَيَانِ وَفَلَسَفَةِ اللُّغَةِ (فَالْبَيَانُ يَعْنِي الدَّلَالَةَ عَلَى الْمَعْنَى- وَالتَّبْيِينُ هُوَ الْإِبْضَاحُ). وَهُوَ لِعَمْرِي كَثِيرُ الْفَوَائِدِ، جَمُّ الْمَنَافِعِ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْفُصُولِ الشَّرِيفَةِ، وَالْفِقَرَاتِ اللَّطِيمَةِ، وَالخُطَبِ وَالْأَخْبَارِ الرَّائِعَةِ، وَقَدْ تَوَزَّعَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ.

أَمَّا كِتَابِي الْبُخْلَاءِ، فَهُوَ كِتَابُ آدَبٍ وَعِلْمٍ وَفِكَاهَةٍ، وَهُوَ مِنْ أَنْفَسِ الْكُتُبِ. فِيهِ وَصْفٌ لِلْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، بِمَا فِيهَا مِنْ أَسْرَارِ الْأَسْرِ وَدَخَائِلِ الْمَنَازِلِ. وَسَتَسْمَعُونَ مِنْ خِلَالِهِ حَدِيثَ الْقَوْمِ فِي شُؤْنِهِمْ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَالْكَشْفَ عَنِ الْكَثِيرِ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ. فَأَنَا لَسْتُ كَارِهًا لَهُمْ وَلَمْ أَتْرُكْ أَثْرًا سَيِّئًا فِي النُّفُوسِ، وَإِنَّمَا هِيَ قِصَصٌ فِيهَا مَوَاقِفٌ هَزَلِيَّةٌ تَرْبُوِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ لِهَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ.

كِتَابُ الْحَيَوَانِ - أَضَحَمْتُ كُتُبِي عَلَى الْإِطْلَاقِ! يَتَحَدَّثُ عَنِ الْعَرَبِ وَالْأَعْرَابِ وَأَحْوَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَمَرَاعِمِهِمْ وَعُلُومِهِمْ، وَبَعْضُ مَسَائِلِ الْفِقْهِ وَالدِّينِ.

فَهُوَ بَحْثٌ فِي طَبَائِعِ الْحَيَوَانِ وَعَرَائِرِهِ وَأَمْرَاضِهِ وَتَأَثِيرِ الْبَيْتَةِ فِيهِ وَفِي الْإِنْسَانِ، فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسَائِلِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي خِصَائِصِ كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ.

بِمَا إِنِّي عَرَفْتُ بِخَفَةِ الرُّوحِ وَالطَّرَافَةِ، فَلِي بَاعٌ بِالنَّثْرِ الْهَجَائِيِّ السَّاخِرِ، خَيْرٌ مِمَّا لِي عَلَى ذَلِكَ: (رِسَالَةُ التَّرْبِيعِ وَالتَّدْوِيرِ) فِيهَا أَهْجُو رَجُلًا كَثِيرَ الْإِدْعَاءِ وَالتَّبَجُّحِ وَوَأَفَعُ حَالَهُ لَا يَنْبِتُكَ إِلَّا بِنَقِيضٍ مَا يَزَعُمُهُ. وَيُعْتَقِدُ أَنَّيَ طَوَّرْتُ النَّثْرَ لِيُصْبِحَ سَهْلًا لِيَنَّا، بَعْدَ أَنْ نَظَمْتُهُ تَنْظِيمًا مُوسِيقِيًّا خَاصًّا يَلِدُ لِلْأَذْنِ وَيُنْعَجُ النَّفْسَ وَالْعَقْلَ مَعًا .

إِنَّ مِنْهَجِي فِي حَيَاتِي وَكُتُبِي هُوَ: تَعْظِيمُ مَكَانَةِ الْعَقْلِ (تَعَلُّمُ الْعَقْلِ أَوَّلًا وَالأَدَبِ ثَانِيًا) وَالاسْتِعَانَةُ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ - مِنْهَا الْقِيَاسُ وَالاسْتِقْرَاءُ وَالاسْتِنْتَاجُ.

كَانَتْ نَهَائِي غَرِيبَةً بَعْضُ الشَّيْءِ! فَبَعْدَ أَنْ أَقْعَدْتَنِي الشَّيْخُوحَةُ وَأَصَبْتُ بِالشَّلَلِ، جَلَسْتُ فِي مَكْتَبَتِي أَطَّلَعُ أَحَدَ الْكُتُبِ، فَارْدْتُ أَنْ أَخْذُ كِتَابًا مِنْ رَفِّ الْمَكْتَبَةِ، فَسَقَطَتْ عَلَيَّ الْكُتُبُ وَأَرْدَتْنِي قَتِيلًا. هَكَذَا عَشْتُ مِنْ أَجْلِ الْكُتُبِ وَدَفِنْتُ بَيْنَهَا، لَكِنِّي تَرَكْتُ لَكُمْ أَحْبَبِي مَا يُؤَسُّ وَيُعْقَلُ وَيُفِيدُ.